مقدمة

إن الكتب والمؤلفات التى تعنى بتاريخ الطب والأطباء عبر العصور الإسلامية كثيرة ولا يمكن إحصاؤها إلا بشق الأنفس. وعلى رغم ذلك فسيظل التأليف والكتابة مستمرين دوما وبلا انقطاع، لا شغفا بالكتابة والتأليف فحسب، ولكن لأن موضوع الطب والأطباء من الموضوعات المحببة لدى جمهرة العلماء العرب، وقلَّ منهم من لم يؤلف كتابا أو أكثر فى الطب، إلى جانب تآليفه فى الفلسفة أو المنطق أو الطبيعيات أو الفلك. كما أن صناعة الطب عند العرب أقدم من غيرها من الصناعات، واهتمامهم بها كان واضحا، وأذكر فى هذا المقام قول صاعد الأندلسى : «كانت العرب فى صدر الإسلام لاتعنى بشىء من العلم إلا بلغتها وأحكام شريعتها، حاشا صناعة الطب، فإنها كانت موجودة عند أفراد من العرب غير منكرة عند جماهيرهم لحاجة الناس إليها. ولما كان عندهم الأثر عن النبى ﷺ حيث يقول: « ياعباد الله تداووا، فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له دواء إلا الهرمَ».

ولم يكن العلماء العرب مجرد نقلة للعلم الإغريقى كما يدعى المغرضون ، فلم يكونوا كالنمل يجمع غذاءه ويخزنه ليستعمله وقت الحاجة، إنما كانوا كالنحل يجمع الرحيق ويهضمه ويخرجه عسلاً شفاء للشاربين. ولعل سارتون قد أنصف العرب بقوله: «إن بعض المؤرخين يحاول أن يبخس قدر ماقدمه العرب للعالم، ويصرحون بأن العرب والمسلمين نقلوا العلوم القديمة، ولم يضيفوا إليها شيئا...»، ثم يقول سارتون: « إن هذا الرأى خطأ وإنه لعمل عظيم أن ينقل إلينا العرب كنوز الحكمة اليونانية ويحافظوا عليها ولولا ذلك لتأخر سير المدنية قرونا عديدة».

وقال بيتر ياخمان المستشرق الألمانى: « يمكن أن أشبه الطب العربى بجزيرة واسعة عجيبة واقعة فى المحيط، ذات جبال عالية ورياض مزهرة وأنهار جارفة وبساتين قائمة، وإذا بالمكتشفين يجتازون البحر من جميع الجهات يرغبون فى اكتشاف أسرارها، أما الجبال العالية والرياض المزهرة والأنهار والبساتين فهى رموز إلى أعلام الطب العربى وإلى مؤلفاتهم الرائعة البديعة، وأما المكتشفون الذين يجتازون البحر من جميع النواحى فهم الباحثون عن تاريخ الطب العربى وعوامله وتطوره، وهم هيئة تتألف من علماء بلدان مختلفة.. ويدل هذا الاهتمام العالمى بالطب العربى على أن الكتب الطبية العربية فيها قوة عقلية لم تزل تؤثر فى الناس حتى يومنا هذا ولن تزال فى المستقبل إن شاء الله. وأقصد بتلك القوة العقلية التى بدت فى كتب أفاضل أطباء العالم الإسلامى قوة استقلال رأى الباحث ... الخ»

ومنذ فتح الله على الناس بالإسلام، والعلوم تشهد نهضة شاملة، ولاشك أن لهذا أسبابا نوجزها فيما يلى: أولها حرية الرأى العلمى بلا حدود، وثانيها: هو ما كان يلقاه العلماء من رعاية الحكام والولاة بل العامة والخاصة، أما ثالث العوامل فهى: استعلاء العلماء بعلمهم.

وإذا كان الطب بدأ بالترجمات، فإنه بعد مسيرة قصيرة حفل بالمؤلفات والإضافات. ويظهر ذلك فى الآلاف من المصنفات التى كتبت عبر العصور الإسلامية. وفى كتابنا عن هذا الموضوع وتدارس هذا التراث الخالد بنظرة علمية موضوعية، نؤكد على أهميته، وليس هذا من قبيل لَىَّ العنق إلى الخلف وإنما الالتفات إلى الجذور، والإفادة من محاسنها. وأول شىء يمكن استنتاجه من دراسة تاريخ فرع من فروع المعرفة والعلم والفكر العربى الإسلامى، هو الثقة بالنفس، وهى أمر هام و ضرورى، حيث هى الوسيلة الأساسية فى بعث النهضة العربية الإسلامية، التى تأخرت عن سلوك طريقها طويلا لأسباب عديدة متشعبة.

وفى ضوء اتساع الموضوع وتشعبه، فإن مجلدا واحدا لايكفى لحصر كل هؤلاء الأطباء الذين عاشوا عبر العصور الإسلامية حتى نهاية القرن التاسع عشر؛ لذلك كان التقسيم واجبا ولازما، وقد تبين أن التقسيم الزمنى يقطع الاستمرارية والتواصل فى القراءة. لذلك فضلنا أن يكون التقسيم جغرافيا. وذلك بالرغم من عدم وجود هذا التقسيم إبان العصور الإسلامية الزاهرة ،لكن انقسام الدولة الإسلامية إلى دويلات بعد ذلك – على رغم أنه لم يفقد الصلة العضوية للحضارة فى هذه الدويلات، إلا أن تباين ظروف الحكم والحكام انعكس على مسيرة النهضة العلمية فى كل دويلة.

وإذا كنا قد بدأنا بالجزء الأول عن أطباء مصر عبر العصور الإسلامية ، فإننا نأمل أن نوفق، أن تخرج أجزاء أخرى عن بلدان الوطن العربى، وأتعشم أن يكون ذلك بالتعاون مع أحد الزملاء المهتمين بالأمر.

ويضم هذا الجزء تسعة أبواب يقدم الباب الأول عرضاً تاريخياً لتعاقب العصور منذ الفتح الإسلامى لمصر حتى سنة ١٣١٨هـ/١٩٠٠م. وفى هذا ما ييسر للقارئ تتبع نظم الحكم واختلافها من عصر إلى عصر، ويساعده على التعرف إلى أثر هذه النظم فى تطور صناعة الطب ونهضة التأليف فيها. والأبواب التالية تعرض لأطباء كل عصر من العصور، بدءا بالقرنين الهجريين الأولين، ثم العصور الطولونى ثم الإخشيدى ثم الفاطمى ثم الأيوبى ثم عصر المماليك ثم عصر العثمانيين وأخيرا عصر أسرة محمد على.

وقد رتبنا الأطباء فى كل عصر حسب تواريخ وفياتهم. وحاولنا الرجوع إلى ما أمكننا الرجوع إليه من المصادر والمراجع لجمع البيانات والمعلومات عن كل طبيب، ومؤلفاته، ومكان وجودها، وطبعاتها. وفى بعض الأحيان عرض مبسط لمحتوياتها.

ولقد جابهتنا مشكلة وجود طبيب عاش فى أكثر من عصر من العصور مثل ابن النفيس مثلا، الذى جاء إلى مصر فى العصر الأيوبى ولكنه عاش جزءاً من حياته فى عصر المماليك بل إنه مارس الطب فى البيمارستان القلاوونى. ولكن تدارسنا للعصور ككل، وتتبعنا للأطباء وطبقاتهم خلال هذه العصور يجعلنا نضع ابن النفيس مثلا ضمن أطباء العصر الأيوبى ، وهذا ماحدث مع غيره مثل ابن أبى أصيبعة و الكوهين العطار اللذين ألحقانهما بأطباء العصر الأيوبى.

أما من خدم الفاطميين من الأطباء أول عهده بالطب وكان جل إنتاجه وحياته فى العصر الأيوبى فقد اعتبرناه من أطباء العصر الأيوبى مثل أبو البيان بن المدور والرئيس هبة الله وأبو سليمان أبى فَانهَ والشيخ السديد.

ولقد لاحظنا أن أطباء مصر عبر العصور الإسلامية لم يكونوا بمعزل عن الأطباء فى الأمصار الإسلامية الأخرى، بل كانوا مترابطين متواصلين، وفى مؤلفاتهم نجد إشارات ورجوعا إلى مؤلفات أطباء الأمصار الأخرى، بل إنه كانت بينهم محاورات علمية كما حدثت بين ابن رضوان المصرى وابن بطلان البغدادى. أضف إلى ذلك انتقالهم بين أمصار الدولة الإسلامية ، مثل عمار الموصلى وابن الهيثم وابن ميمون وغيرهم.

ولا مراء فى أن ازدهار الدولة ونماء الحياة الاجتماعية والسياسية فيها قد أديا إلى ازدهار التأليف فى الطب. ويلاحظ ذلك الثراء الفكرى للأطباء فى العصرين الفاطمى والأيوبى. وتراجع الإضافات العلمية الجديدة فى التأليف فى العصر المملوكى، على رغم أن هذا العصر قد حظى بمن أقام البيمارستانات ورعاها. ولقد كان معظم أطباء هذا العصر من علماء الأزهر الشريف. الذين اتخذوا الطب حرفة جانبية إلى جوار تخصصهم الأصلى فى الفقه وعلوم الدين.

وتميز العصر العثمانى بنقص شديد فى إنتاج الكتب والمؤلفات الطبية، بل زاد فيه الاعتماد على الخرافات والخزعبلات، ولعل هذا يعكس الحياة السياسية المتقلبة. والظروف الاجتماعية والاقتصادية المتدهورة فى ظل حكم الولاة الأتراك. ولكننا نرى أن حكم محمد على قد تميز بإنشاء المدرسة الطبية وإرسال العديد من أبناء مصر لدراسة الطب فى دول أوروبا. ومَثل ذلك صحوةً كبرى، وبعد أن كانت المعارف والعلوم تتخذ اتجاها واحداً من الشرق للغرب فى العصور الإسلامية الزاهرة، ثم توقفت التيار خلال عصور الانحطاط، فإن عصر محمد على تميز بنقل المعارف والعلوم من دول أوروبا إلى مصر. وظهرت الترجمات العربية لعديد من كتب الطب المؤلفة بلغات أجنبية، كما ظهرت مؤلفات فى الطب باللغة العربية.

وشـارك فى حركة التأليف والترجمة عدد كبير مـن الأطباء المصريين، وهى حركة تعد من أهم حركات النهضة العلمية فى مصر، غير أنها انتكسـت بعد الاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢ م، فقد جعل الاسـتعمار اللغة الإنجليزية هى لغة مدرسـة الطب المصرية. ولكن التاريخ سـيظل يذكر هذه المؤلفـات وأسماء مؤلفيها العظماء. ومـن الجدير بالذكر أن أحد الأطباء المصريين وهو الدكتور البقلى باشـا قام سنة ١٨٦٥ م بإصدار مجلة اليعسوب بالاشـتراك مع زميله الدكتور إبراهيم دسوقى بك، وكانت أول مجلة طبية تصدر باللغة العربية ويمكن لنا أن نتصور كم مجلة طبية كانت تصدر سـنة ١٨٦٥م فى العالم كله. ولكنها نهضة لم تستمر ، وفلت الزمام من أيدى المصريين.

وعلى رغم التقلبات السياسية والتى عصفت بمصر عبر العصور المختلفة، فإن إنتاج أطبائها عبْر العصور الإسلامية، كان جزءاً من الطب العربى الإسلامى الذى قال عنه ماكس مايرهوف المستشرق الألمانـى فـى كتابه « تراث الإسـلام »: « إن الطب الإسـلامى قد عكس ضوء الشـمس الغاربة فى اليونان، وتلألأ كالقمر فى سماء العصور المظلمة، وثمة نجوم سطعت من تلقاء نفسها، وأضاء سناها ظلمة هذه السماء، ثم أفل القمر وخبأ ضوء النجوم فى فجر عهد جديد، لكن أثرها بقى فى الحضارة حيا حتى الآن».

وإذا كُنـا قـد بذلنا جهدا فى إعداد هذا الكتاب، فهو جهد المقل، ولا ندعى أننا بلغنا ما نريد، ولكننا نرجو أن يتقبل الله عملنا، وأن يكون عملا مفيدًا بنَّاء لأبناء الأمة، آملين أن يكون علماً ينتفع بـه. وإننا على يقين أنه كأى عمل إنسـانى يعتريه النقص والقصـور، فنعتذر للقارئ عن تقصيرنا، فالكمـال لله وحده.

والله من وراء القصـد.

أ.د. كمـال الديـن حسـن البتانونى
د.أحمـد كمـال الديـن البتانونـى
الجيزة فى: ١٤٢٩هـ
٢٠٠٨ م

تمهيـــــــد

الطب والأطباء
فى نظر المسلمين

إن من يكتب عن فضل صناعة الطب وأهميتها لا يمكنه أن يأتى بأفضل مما قدم به ابن أبى أصيبعة لكتابه عيون الأنباء فى طبقات الأطباء حيث يقول: « فإنه لما كانت صناعة الطب من أشرف الصنائع، وأربح البضائع، وقد ورد تفضيلها فى الكتب الإلهية والأوامر الشـرعية، حتى جعل علم الأبدان قرينا لعلم الأديان، وقد قالت الحكماء: إن المطالب نوعان: خير ولذة، وهذان الشـيئان إنما يتم حصولهما للإنسـان بوجود الصحة، لأن اللذة المسـتفادة من هذه الدنيا والخير المرجو فى الدار الأخرى، لا يصل الواصـل إليهمـا إلا بدوام صحته وقوة بنيته، وذلـك إنما يتم بالصناعة الطبيـة لأنها حافظة للصحة الموجـودة، ورادةٌ للصحـة المفقودة، فوجب إذ كانت صناعة الطب من الشـرف بهـذا المكان، وعموم الحاجـة إليها داعية فى كل وقت وزمان، أن يكون الاعتناء بها أشـد، والرغبة فى تحصيل قوانينها الكلية والجزئية آكد وأجد».

ويقـول الإمام أبو حامد محمـد الغزالى: « وقد جعل النبى ﷺ تعلـم الطب من فروض الكفاية بحيث يجب أن يكون فى الأمة من يعانى هذه الصناعة، ليحفظ صحة الإنسـان، وإذا ما فقد هذا العلـم، فإن الإثم يقع على كافة المسـلمين ». ولقد عرف أبو منصـور الثعالبى الطب بقوله: الطب استدامة الصحة وَمَرمَّة العلة.

وخصال الطبيب كما ذكرها ابن رضوان الطبيب المصرى على رأى أبقراط الإغريقى سبع :

الأولى : أن يكون تام الخلق صحيح الأعضاء، حسن الذكاء، جيد الروية، عاقلا، جيد الطبع.

الثانيـة: أن يكون حسن الملبس، طيب الرائحة، نظيف البدن والثوب.

الثالثـة: أن يكون كتوما لأسرار المرضى لا يبوح بشىء من أمراضهم.

الرابعـة: أن تكون رغبته فى إبراء المرضى أكثر من رغبته فيما يلتمسه من الأجرة، ورغبته فى علاج الفقراء أكثر من رغبته فى علاج الأغنياء.

الخامسة: أن يكون حريصا على التعليم والمبالغة فى منافع الناس.

السادسة: أن يكون سليم القلب، عفيف النظر، صادق اللهجة، لا يخطر بباله شىء من أمور النساء والأموال التى شاهدها فى منازل الأعلاء فضلا عن أن يتعرض إلى شىء منها.

السابعة: أن يكون مأمونا ثقة على الأرواح والأموال لا يصف دواء قاتلا لا يعلمه، ولا دواء يسقط الأجنة، يعالج عدوه بنية صادقة كما يعالج حبيبه.

□□□

obeikandl.com